Lettres de Byblos

Letters from Byblos

رقم 12

بريتن بريتنباخ

الحلم الأفريقي:
أية فرصة لأية ديمقراطية؟

Centre International des Sciences de l'Homme
International Centre for Human Sciences

Byblos 2006

Lettres de Byblos / Letters from Byblos

A series of occasional papers published by

UNESCO Centre International des Sciences de l'Homme
International Centre for Human Sciences

The opinions expressed in this monograph are those of the author and should not be construed as representing those of the International Centre for Human Sciences.

All rights reserved. Printed in Lebanon. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopy, recording, or any information storage or retrieval system, without permission in writing from the publisher.

C International Centre for Human Sciences, 2005

Published in 2006 in Lebanon by the International Centre for Human Sciences, B.P. 225 Byblos (Jbeil), Liban.

ISBN 9953-0-0703-9

يرعاية معالي وزير الثقافة الأستاذ طارق متري وبمناسبة انعقاد الطاولة المستديرة حول موضوع" العقبات في وجه انتشار الديمقراطية في العالم خلال العشرية القادمة"، ألقى السيد بريتن بريتنباخ المحاضرة الأولى في إطار سلسلة محاضرات بيبلوس العامة وذلك في مقر المركز الدولي لعلوم الإنسان–جبيل– يوم السبت الواقع فيه 29 تشرين الأول/أكتوبر 2005.

بريتن بريتنباخ

– من مواليد جنوب أفريقيا

– فنّان تشكيلي مميّز، ناشط سياسي وكاتب. له أعمال عديدة في القصة القصيرة والبحوث والمسرح. أمّا في الشعر فيفوق عدد مؤلفاته الثلاثين.

– في إطار كفاحه المناهض للتمييز العنصري، أسس بريتنباخ مجموعة " أوخيلا" المقاومة التي وضع هو نفسه نصّها التأسيسي.

– لأسباب سياسية أمضى السنوات الممتدة بين 1975 و 1982 في زنزانة إفرادية في سجون أفريقيا الجنوبية. ولعلّ مذكراته المتعلقة بتلك المرحلة والصادرة في أربعة أجزاء تحت العناوين التالية: A) Season in Paradise -1973-, The true Confessions of an Albino Terrorist-1983- , Return to Paradise-1991- et Dog Heart: a Memoir -1999-) تشكل اليوم أشهر كتبه بعد أن تمّ نقلها إلى أكثر من اثنتي عشرة لغة.

– يعتبر أشهر الشعراء الأحياء الناطقين في اللغة الأفريقانية. من مجموعاته الشعرية نذكر The Iron Cow must Sweat -1964- et Footscript -1976 حيث تطالعنا لغة هادرة، على جانب رفيع من البلاغة، غنية بالصور والدلالات البوذية أو المستعارة من التراث الأفريقاني و المشهد الأفريقي الجنوبي. أمّا مجموعته الشعرية الأخيرة تحت عنوان Lady One فإنها وجدانية بامتياز تضمّ قصائد في الحب والغزل.

– لوحاته عموماً ذات منحى سريالي تمثل وجوهاً إنسانية أو حيوانات في الأسر. له معارض فردية عديدة في مدن عالمية منها جوهانسربغ، كاب تاون، هونغ كونغ، أمستردام، ستوكهولم، باريس، بروكسيل، ادمبرغ، بوتسدام ونيويورك.

– حائز على أوسمة عديدة وجوائز فنية وأدبية منها l'APB Prize, (خمس مرات) Can Award, Allan Paton Award for Literature, Rapport Prize, Hertzog Prize, Reine

Prinsen-Geerling Prize, Van der Hoogt Prize, Jan Campbert Award, Jacobus van Looy Prize for Litarature and Art,

- حائز أيضاً على وسام الشرف الفرنسي برتبة فارس.

– بعد إطلاق سراحه عمل على تأمين الإنتقال السلمي نحو الديمقراطية في أفريقيا الجنوبية ونظّم لهذا الغرض، بالتعاون مع F. Van Zyl Slabbert و A. Boraine مؤتمر داكار التاريخي في العام 1987 الذي شكّل اللقاء الأول بين الفعاليات السياسية في البلاد (جنوب أفريقيا) وأركان المؤتمر الوطني الأفريقي في المنفى فكان بالتالي أول محاولة جدية للمصالحة بين الأطراف المعنية.

– من مؤسسي مركز غوريه Gorée (1992) القائم على ما كان معروفاً بجزيرة العبيد القديمة في خليج داكار و الذي يعنى بالديمقراطية والتطور والثقافة . هذا المركز هو مؤسسة شاملة للقارة الأفريقية تسعى إلى توطيد التقدم نحو الديمقراطية واستقلالية المجتمعات المدنية والبحث والتعبير الثقافيين في أفريقيا ولقد كان بريتنباخ مديراً له بين العامين 2002 و 2004.

– درّس في جامعات ناتال وبرينستون وكاب تاون. وهو اليوم أستاذ مادة الكتابة الإبداعية في جامعة نيويورك.

الحلم الأفريقي:أية فرصة لأية ديمقراطية؟

–بريتن بريتنباخ–

إنني واثق من أنكم لا تَتوقّعُون أَنْ أُقدّمَ لكم تعريفا لل"ديمقراطيةِ". فالتعريفات كثيرة ومتناقضة أحياناً. وهي تشمل شتى الجهود والمعارك في سبيل تدعيم وتثبيت البنى العائدة لصيغة الحكم المندرج تحت هذا المفهوم.

إن الأعمال الوحشية التي تقترف تحت شعار "نشر الديمقراطية لا تعدّ ولا تحصى! كذلك فإنني لن أتمكن من تحليل مدى أهمية وانتشار الديمقراطيةَ في الدول الأفريقيةِ المُخْتَلِفةِ – لكنه من السهل أن تضطلعوا على آخر المعلومات المتعلقة بهذه المسألة من خلال المنشوراتِ ومواقعِ الانترنت.

قبل المتابعة، يبدو لي من الضروري، وذلك للتركيز على أفريقيا كموضوع لهذه المُناقشةِ، تَحديد موقعها ضمن سياق أكثر شمولية وتحديداً في اطار العلاقة بين الشمال و الجنوبِ . فإنه، في الواقع، من ضروب الجنون التصور، ولو للحظة، أن الإنحلال الذي نشهده في القارةِ "السوداء" فريد، أَو بأنّه يُمْكِنُ فصله عن التغيرات والتطورات التي تظهر في العالمِ.

دعْوني أعود أدراجي لأعطيكم فكرة عن مسار تطور تحليلاتي الشخصيةِ القائمة على قناعاتي وتجاربي الخاصة التي غالباً ما اتّسمت بالخيبة والمرارة المفجعة والتي أستعيدها هنا في خطوطها العريضة.

إن مفهوم "الديمقراطيةِ' الذي كان لي أن أترعرع في ظله وأعرفه عن كثب في جنوب أفريقيا، بكلّ ما يتضمنه من عناصر مكوّنة للدولة الديمقراطية كالإنتخابات والبرلمان و فصل السلطات كان يتمظهر آنذاك في الملكية والصلاحيات والإمتيازات الأبوية العائدة للجماعة الإتنية التي ينتمي إليها المرء. وأظننا، في ذلك الحين، كنا ما نزال معوقين، تعرقلنا نظرة ضيّقةِ للقِيَم الأوروبية و المعتقدات الباطلة والمحرمات المتعلقة بالأقلية "البيضاء" الحَاكِمة.

غير أنني، لمّا شرعت أعي النتائجَ التضمينية لهذا الواقع قلقت لضيق أفق "شعبي" وأيّدت بلا تردّد الحركات السياسية المنادية بالإيديولوجية التحررية والتي كانت أكثر الإيديولوجيات رواجاً في جميع البلدان المُسْتَعْمرة في ذلك الوقت. ولقد اعتبر التيار التقدمي الممثّل للتحرك السياسي الصحيح في تلك الفترة أن القومية العرقية أَو الدينية، على سبيل المثال، تؤخّر لا بل تمنع انعتاق المحرومين، مما يوجب الثورة عليها لإلغائها. ولقد رزح الوعي الجَماعيٍ لدينا في ذلك الحين تحت التأثير العميق للحتمية التاريخيةِ والماديةِ. فالصيرورة التاريخية، على ما كنّا "نعرف"، ما هي سوى سلسلة مراحل متتالية تبشّر بوعي متزايد منفتح على التطور و على تقدم البشرية المشترك. لذا فإننا خضنا كفاحنا في سبيل الحريةِ تحت لواء التقدم، على أنه ظاهرةِ علميةِ وحتمية، متجهين نحو تجاوز الحدود الوطنية والفواصل الدينية غير المجدية. ولمّا كَانتْ الحياة البشرية في تطوّر مستمر مع تنامي التَصْنيع وانتشار الاتصالات و تَعميم وسائل النقل والمضادات الحيوية والبلاستيكَ. . فلقد صار مفهوم " الإنسان الجديد "، الغربي في ماهيته و العائد على الأرجح الى المسيحية الأولى و به إلى إمكانية الولادة الثانية و التجددَ و التطور من خلال وجود قابل للكمال والإستكمال، حجر الأساس الذي قامت عليه الأوطوبيا خاصتنا. لقد انطلقت مسيرة الحرية و نحن كنا، إلى ذلك، قد عرفنا عدوّنا.ها إننا سوف نستأصل بنى الظلمِ والكسبِ غير المشروع لنفسح للتقدّمِ والديمقراطيةِ الحقيقيةِ مجالاً و نَشْنُّ الحرب من أجل إرساء الديمقراطية الحقيقية (المركزية) والسلام!

غير أنني، مثل الكثيرين، كنت قصير النظرَ وساذجاً. فبعد اختبارات أدمت أنفي حيناً وقلبي أحياناً، أصبحَ بيّناً بالنسبة لي (أو هكذا اعتقدت آنذاك) كم أنّ التغيراتَ الطارئة على سلوكِ أَو وعي الانسان طفيفة مهماعلا شأن محاولات التطوير على مرّ العصور وذلك في العودة إلى أبعد ما يمكن

للذاكرة والأبحاث أن تعود إليه، وأَنَّ هذه التطورات الصغيرةِ المنسوبة دائماً إلى ظروفِ معيّنةِ لا تلغي البتة التغيرات الطارئة في اتجاه المزيد من خداعِ الذات والهمجيةِ. أكثرمن ذلك: لقد أدركت أن التقدّم أطلق عملية جدلية كان أن جاءت خسارتنا من جرائها أقلّه موازية للربح الذي جنيناه منها إن لم تكن فائقة له.

على سبيل المثال: في التسعينياتِ، تزَاجعَ تطبيق حكمِ الإعدام في أغلب أجزاءِ العالمِ (مع وجود إستثناءاتِ بارزةٍ لبلدانِ مثل :الولايات المتحدة الأمريكية والصين وإيران وكوبا). رغم ذلك، تفاقمت، أكثر من أي وقت مضى، جرائم القتل الموجَّه وعمليات تبييضها وإزالة المعارضين العشوائية. ورغم أن مَنْع التعذيبِ أمر متفق عليه عالمياً (مرة ثانيةً، مع إمتناعِ الولايات المتحدة الأمريكية الذي نشهد نَتائِجَه في قاعدة غوانتانامو وفي أبوغريب)، فإنه لم يسبق على الأرجح أن تعرّض مثل هذا العدد من الناس للتعذيب بغيةِ إنتِزاع مزعوم للمعلومات. نعتقد أنّ الأُمم المتّحدةَ كانت لتجسّد ضمانة دوليةً كافيةً لتَوحيد الآمال والتوسط في النزاعاتً، غير أن القوى العظمى عطّلت دورها لاعتبارات و مصالحَ خاصةَ أولتها أولوية مطلقة، كما وأضعفتها نزاعات الأمم الصغيرةِ وتناحرها على فتات السلطة و فضلاتها. لقد أُخبرنَا أنّ الإسلام يلزم المسلمين بالإستقامة ومحبة الإنسان . مع ذلك نرى أنّ رَجْم النِساءِ حتى الموت لافتراض مُخَالَفَتهنّ الشريعة بات اليوم أمراً مألوفاً. منذ زمن ليس ببعيد صار لكُلّ شخص تقريبا سيارةٍ أَو كان يحَلمَ بإمتِلاك واحدة ، مما برّر عَرْقَلَة الطرقات واكتظاظ الشوارعِ واختناق المدن الكبرى بالغازاتِ السامّةِ ، ومنها حتى تلك المعروفة تقليدياً بمُدنِ الدراجاتِ مثل بيجين وهانوي. لقد اشترينا جميعاً الهواتف الخلوية، و ها نحن الآن أشبه بقِطْعانَ فردية تثرثر بلا نهاية من غير أن يكون لديها فعلاً ما تقَوله، وذلك في عزلة فعلية عن بعضها البعض مثل الطيورِ الصمّاءِ. جذبنا التلفاز مثل أسماكِ يجذبها الماء العكرِ، فصارت مخيلتنا مبتذلةُ مريضة من جراء التعرّضِ المستمرِ للأكاذيبِ و إثارة الرغباتِ التي يستحيل ارضاؤها. بإسم حرية التعبير، انهارت المحرمات حول ما يجوز مشاهدته في الأفلامِ أو لا يجوز بحيث غدونا غير مبالين أمام الإغتصابِ والخلاعة والقتل الجنوني. رغم اقتنائنا الكمبيوتر فإن قدرتنا على خَزْن ونقل ذاكرتنا لن تلبث أن تنفذ. تردنا المعلومات عبر شبكة الانترنتِ فتغرقنا بخرافات و ثرثرات إن دلّت على شيء فعلى جنون وهذيان ونرجسية مفرطةِ. نتحكّم بالفضاء و يُمْكِنُنا أَنْ نُتسبب بالموت على مسافاتِ طويلةِ. في كُلّ صحن

تقريباً من الصحون في "العالمِ المتطورِ " دجاجة فغدونا "محشوين" بالهورموناتِ والمضادات الحيوية. في الحقيقة، إستعملنا الكثير مِنْ العلاجات العجائبية لمكافحة أمراضِ معديةٍ فأصبحت أجسامِنا شبه محصّنة ضدّ الدواءِ. يتلقى المزارعون الأوروبيون الدعم لكيْ لا يُنتجوا المحاصيل بينما يتضوّر الملايين جوعاً في بقاع أخرى من العالم. يَغتنونَ من تربية آلافِ الخنازيرِ لكنهم لا يَستطيعونَ شُرْب مياه الأرضِ بسبب تراكم النيترات.

حتى نحن الفقراء نحرّض على الشِراء والإسْتِهْلاك للمتعة فنغرق بالنفايات. في البلدان الغنية، يتمتع الفقراء أيضاً بالهامبرغر والمقالي والدهونِ والسُكّريات زالمشروبات الغازية والمواد الكيمياويةِ. لذلك يُصبحون هم أيضاً عرضة للبدانة.نطوّر إقتصادنا من خلال انْتاج وبيع الأسلحةِ، فنفرز قتلة مدمنين على المخدّرات وهم لا يزالون في سنّ ال13، حمّر الوجوهَ متنكرين بثياب اشبه بثياب العرس البيضاء، يحملون بنادقَ كلاشينكوف الواحدة منها أرخص مِنْ كيس أرزٍ ولَيْسَ لديهم من باب لاثبات رجولتهم سوى القتل الجنوني. من خلال كل مظاهر هذا الواقع يلمع خيط "العولمة" الذهبي عنواناً للإستغلال الرأسمالي العالمي الشرس : لقد كُيّفنَا للمزيد من الإستهلاك، فبتنا نشهد المزيد من الفقر والإفقار.

في الحقيقة، اعتقدنَا لفترة أنّنا تَقدّمنَا بشكل جماعي إلى مفاهيمِ جديدةٍ تُجسّدُ أخيراً الاهتمامات الدولية وتلغي إلى غير رجعة التَطهير العرقي و الإبادة الجماعية. ألم يكن هذا هو الدرسَ الذي تَعلّمنَاه مِنْ الحرب العالمية الثانيةِ والإمبرياليات المتعاقبةِ والنزاعاتِ الإستعماريةِ؟ فإذا بنا، بعد ذلك، نشهد مآسي كمبوديا والبوسنة وكوسوفو ورواندا والشّيشان ودارفور. لقد ألزمَ الغرب نفسه تَصدير ديمقراطيةِ ما لبث أن ثبت أنها من النوع الذي يرى في الإيمان الإنجيلي واللاعقلانية أساساً للحكم أفضل من العقلانية والإرتكاز على الوقائع. وإننا في هذا الإطار سوف لا نتكلم على المدن الممحية وآلاف الضحايا من المدنيين. في العراق، تنجح المقاومة في جعل المحتل الأميركي يتخبط في شباكها فتدفع بذلك، ولو لمرحلة، بالغزو بعيداً عن سوريا وإيران. غير أن المقاومة نفسها ، ويا للمفارقة، تعود لتقطع رؤوسِ رهائن بريئة بإسم اللهِ. بعد أن أُبيد اليهود تقريباً أثناء المحرقةِ، نرى دولة اسرائيلَ تمتلك اليوم أكثر

الآليات فعالية في اطار إرهابِ الدولة المنظّم. الفلسطينيون تبعثروا في المنفى، وها أن زعيمَهم التاريخيَ، عرفات، يطالعنا كواحد من أكبر محتالي الأزمنة الحديثةِ. لكننا نمسك عن الأمر، تضامناً. تحرّرت أفغانستان مِنْ طالبانِ، وها هي تعود لتتصدّر من جديد قائمة البلدان المنتجة للهروبين في العالم بأكثر من 80 % مِنْ الإنتاج العالمي. لطالما كان فيديل كاسترو رمزاً للتأجّج والإستقامة الثورية والصمود في مواجهة الغرينغو، لكننا نَعْلم اليوم أنّ مِنْ يُحاولُ الهُرُوب من الجنةِ الإشتراكيةِ يقتل كإرهابي وأن الشعراء المعارضين يقبعون في السجونِ، وأن أَخ القائد هو في الواقع من كبار عرابي مافيات المخدّرات في كولومبيا. لقد تمّ حلّ الحزب الشيوعي السوفياتيَ لأغراض عملية عندما انهار النظام ، وها أن ضابطاً من أركان ال" كْي جي بي" يَحْكمُ روسيا اليوم بقبضة حديديةِ.

ماذا عن افريقيا في كل ذلك؟ إنّ الولايات المتّحدةَ التي أصبحَت كيانا مبدّداً،لا تهتم في الواقع بأفريقيا إلاّ لاعتباراتِ أمنية فقطِ أو من باب إمكانية استغلال مواردها الطبيعيةِ استغلالاً غير محدود.. وليست أوروبا، التي لم تعد لتتخطى في اتساعها مؤخرة ثور من طين بحسب تعبير محلي تقليدي، أكثر جدّية في تعاطيها مع أفريقيا؛ متجاهلة نتائجِ صفقاتِها السابقة المعقودة بإسم الحلفَ الإستعماريَ السابق أو تحت شعار تعديلاتَ بنيوية جاءت متهوّرةَ. وتشبه السياسة الخارجية المشتركة للإتحاد الأوروبيِ قلعةِ حصينة تستثني حصراص كل ما ليس أوروبياً، نَشْهدُ مشاهدَ مفجعةَ مِنْ آلافِ الشبابِ السودِ الذين يُمزّقونَ أجسادهم على أسيجةِ الأسلاك الشائكةِ في مُحَاوَلَة الدُخُول عبر المخافر الأمامية للإمبراطوريةِ، أَو يَغْرقُون في الزوارق الصغيرة في محاولة ارسائها على شواطئِ إسبانيا وإيطاليا . وهذا الإتحاد نفسه هو الذي يَوصي أفريقيا باعتماد إقتصاد حر محدث لا يعني في الواقع أكثر من تكريس الأنظمةِ الإستبدادية القائمةِ و تعريض القارة للمزيد من الإضطرابِات العسكريةِ والحروب الأهليةِ مما يستتبع طبعاً بحكم المنطق إنحطاطاً واهتراءاً وفساداً على مستوى النخبة السياسية و الإجتماعية، وتدهوراً في المستوى المعيشي، و جَنوناً يصيب العقلَ الأفريقيَ نتيجة البؤسِ، و تقليصاً للحريات من خلال النشاط الإعتباطي للحكوماتِ المُنحطةِ و الطمعِ غير المحدود للحُكَّامِ وزوجاتِهم وأبنائِهم والمقربين منهم والجيشِ الذي يَسْلبُ الناسَ ما لديهم. في بعضِ الأماكن، لا يتيح الواقع أدنى بصيص من الأمل في إمكانية إيجاد أي نوع من الحرية لأنه ليس هناك من وسائل

إقتصادية وسياسية لبِنائها – مما يفسّر المحاولاتِ المستميتةِ المتكررة للدخول الى أوروبا بأي ثمن التي تقابلها القلعة الأوروبية بردّ موحّديكمن في قمعَ الشرطةِ لها.

ماذا نفعل اليوم إزاء ظاهرة آكلي لحوم البشر والأطفال–القتلة؟ كيف وصلنا، بشكل جماعي، إلىَ قْبول فكرةَ " الدول الفاشلة " و "الثقوب السوداء" – على الأقل الى درجة القدرة على التعايش معها؟ متى فقدنا قناعتنا الباطنية الحميمة في أن ما يفعل أو ما هو مسموح بأن يفعل للضعيف الأعزل، يَتعلّقُ بنا جميعا و بأنّ الأجراسَ تَقْرعُ من أجلنا جميعاً؟ وهذه المشاركة الضمنية في ما يجري والتغاضي عمّا لا يقبله الضمير ما هما سوى انذار بموت الأخلاقيات وازديادنا وحشية على حساب حضارتنا المندثرة الواهية؟

تُطارِدُني صورة " ايكاروس" الهابط مِنْ السماءِ أستشف فيها ما يشبه الإشارة الى القضايا التي تَلُوحُ في أفق العالمِ المُعاصرِ الذي نَسْكنَه من همجية و إرهاب و إمبريالية و افقار وأوبئة و غياب أو تغييب للرموزِ الأخلاقيةِ وسلّم القيم لصالح المادية المفرطة و النرجسية الثقافية والفنية. . وقائع وأحداث تصوّر بطريقة ملموسة خط التقاء الخاص والعام.

أشلاء من ساقِ بشرية سقطت على سقفِ بام هيرن التي تَعِيشُ على بعد حوالي 9 كيلومتراتِ مِنْ مطارِ جْي إف كْي في نيويورك. بعد الهبوط، سوف يتم العثورعلى أطراف وأعضاء بشرية أخرى بين عجلات طائرة الخطوط الجوية الجنوب افريقية القادمة مِنْ جوهانسبيرغ عبر داكار. لا بطاقاتَ هوية أو أسماء أو أوراق ثبوتية. تَقُولُ بام هيرن أنها ظنّت ، في بادىء الأمر، بأن الضوضاءَ سببها جار يُحمّلُ شاحنتَه في مكان قريب.وأضافت: "أَنا مسرورة لأنني أعيش حيث أنا لكي لا أكون مضطرة للهروب كما فعل ذلك الرجل". أما السلطات فأكدت أن "لم يكن في اي وقت من الأوقات من خطر على متن الطائرة."

بعدأن أنجزت كتابة هذه الفقرةِ ، شاهدت على قناةِ تلفزيونِ آرت تقريراً حول قصة "سالومون" مِنْ الكاميرون الذي سَقط مِنْ السماءِ بنفس الطريقة في حقل ذرة صفراءِ في ألمانياعلى مقربة من الحدودِ السويسريةِ. يَظْهرُ أنه كان قد نَجحَ مرّة قبل ذلك، خلال رحلة مِنْ دوالا إلى باريس. و كَانَ في ذلك

الحين بعد في الخامسة عشر من عمره. غير أنه أصيب بثقّبَ في طبلةَ الأذن كما وأن بَعْض أصابعه تجُمّدتْ فاقتضى بترها. لكنه بعد عودته إلى وطنه بأسبوعين،كرّر المحاولة غير أنه هذه المرة عثر على جسمِه الأسودِ المُجَمَّد هامداً بين القصب في حقل ذرة. يبدو هنا أنه قذف على الأرجح خلال عملية هبوط الطائرة. أو ربما كان قد مات أساسا قبل تلك اللحظة. سترة وموزة وجدت في مخبأِه. في محفظتِه رسالة يُعلنُ فيها موتَه الوشيكَ مثل سقوط ملاك إضافة إلى صورتينِ إحداهما لديانا والأخرى لمادونا عارية الصدرِ . في المنزل عائلته تَبْكي. دُفِنَ في المقبرةِ الألمانيةِ الصغيرةِ وفق الطقس الكاثوليكيِ. صديقة للعائلة، امرأة كاميرونية تُسافرُ للخارج غالبا، أوصيت بإعادة بَعْضاً من تراب قبره.وقد فعلت، ملتمسة من روحِ سالومون ألاّ تؤذيها لأنها لا تريد سوى أن يعود إلى ذويه. في القريةِ ، ُ دْفنُت أخيراً الحاوية الصغيرة للتربةِ الألمانيةِ السمراء في الأرضِ الحمراءِ على طبق من أوراقِ الموز المنثورةِ فصار للأم الثكلى أَنْ تُنهار أخيراً وتقرع صدرَها. الأجساد تتمايل ألماً بعنف.

في الواقع، ماذا عن أفريقيا التي يتعلق بها قلبي؟ إن الاستقلال سواء قدّم لها على طبق أو جاء ثمرة كفاح وتضحيات، جعل كُلّ البلدان الأفريقية تقريبا تعتمد بشكل شبه كلّي على المنحِ والإعانات الدوليةِ لكي تَتمكن من تأمين استمراريتها وبقائها بينما زعماؤها الجالسين على الكراسي مدى الحياة يَسْلبونَ ويَنْهبونَ السكانَ. لكننا مرة أخرى نسكت تضامناً ولأننا نَفْهمُ الحاجةَ التاريخية يتبرع واد، الرّئيسَ السنيغالي، ب 1.5 مليون دولار إلى جمعيةِ أمريكيةِ Wiedergutmachungلل لتدريب علماءِ الفضاءِ بينما آلافِ الأطفال المدعوين "تاليب" يتسكعون في شوارعَ داكار ممسكين بعُلَبِ إستجداء فارغةِ. تحاربُ الجزائر بكفاح بطولي لتَحرير نفسها مِنْ الإستعمار الفرنسي، وبعد ذلك تَنحدرُ إلى جحيم الفسادِ والعنفِ الأصوليِ حيث يَذْبحُ الألاف مثل الخِرافِ. تَصِلُ الأغلبيةُ إلى السلطة في جنوب أفريقيا، فلا تعود كُلّ القطط السمينة من البيض بعد الآن و يَنضمّ بَعْض البيضِ إلى صفوفِ السودِ الفقراءِ الذين ازدادوا فقراً مما أدى الى ازدياد الاجرام. تصل أنغولا اخيرا الى انهاء حربها الأهلية ، لكن رئيسها هوعلى الأرجح أغنى "كليبتوكرات" حيّ. مَنْ يَحْشو جيوبُه بالرشاوى؟ مَنْ يُحرّضُ السلطات القانونية علىَ شْنقُ المنشقّين؟ مَنْ يفرض اعطاء المساعدةِ مكافأة فقط تُحريرُ الأسواقَ؟ مَنْ يَعْرفُ ما يجري في الداخلِ؟ مَنْ يَهتمُّ؟ أريتريا تُصبحُ عنواناً للإكتفاء الذاتي و الصدق

المتنامي والتواضع إلى أن يُهدرُ رئيسها المهووس بالسلطة آلافَ النفوس البشرية في حربِ فاحشةِ ضدّ أبناءِ العم الأثيوبيينِ من أجل بضعة أميال مربّعة مِنْ الصخورِ القاحلةِ.

ما هي الحقائق التي تُؤثّرُ على الطرقَ التي تنظم و تدار من خلالها الحياة العامّةَ في أفريقيا؟ عامل مدلّ واحد، كماسبق واقترحت، يكمن في كوننا، على ما يبدو، وصلنا الى نهاية قابليةِ نجاح الدولة القوميةِ التي هي تركة مِنْ الإستعمار. فإنه لم يعد للدول القومية من سبب لوجودها سوى كونها أطراً لامتصاص المساعدات الخارجيةِ، وميداناً لمجموعاتِ ثائرةِ مجنونةِ مخدّرة وثوريين مرتبطين بحركاتِ غامضة و رجعيةِ. من جراء ذلك إنفجرَت من الداخل عِدّة " أمم" أَو إختفت ببساطة كالصومال وليبريا وسيراليون مثلاً؛ أمم أخرى تنهار عملياً أَو تتُمزّق كالسودان وساحل العاج وجمهورية كونغو الديمقراطية.؛ بعضها، وليس لها من الدولة سوى الاسم، هي، في الحقيقة، صعبة الحكم بسبب التناقضاتِ الإقليميةِ أَو التباين الداخلي الهائل في المعاييرِ والمستويات المعيشية العائدة في الغالب إلى الفسادِ المتفشي، أَو بسبب النزاعِ المستديمِ والعالقِ مثل أنغولا و غينيا بيساو؛ البعض الآخر لا يزال يَتعافى مِنْ الحروب الأهليةِ من دونَ أَنْ يجد بعد حلولا مناسبة لأسبابِها الأصلية مثل مالي أو رواندا أو بوروندي أو الجزائر؛ البعض، مرة أخرى، واقف على حافةِ الهاوية ومعرّض في كل لحظة للوقوع في الفوضى والبؤسِ التي يسببها الفقرِ وعدمِ المساواة وسوءِ الإدارة والنِزاع المُسَلَّحِ المستفحل مثل زمبابوي، توجو، غينيا كوناكري، نايجيريا، وربما ملاوي وزامبيا.

هل من سبيل للتُرويجُ لثقافة سلامِ وإستراتيجية بقاءِ فيما البلدانِ مَحْكُومة بسياسةِ البطر والفسادِ والعجزِ؟ كَيفَ نَتعاملُ مع أوبئةِ الأيدزِ والملاريا بعد أن أمعن في تفكيك الأنظمةِ الطبيةِ الوطنيةِ باسم التسويات الماليةَ؟ ماذا نَفْعلُ بالآفِ الأيتامِ المشردين الذين يشكلون مشاريع وحوش؟ كيف نقوم باصلاح السلاسلِ المَكْسُورةِ للإنتاجِ الغذائي فيما المزارعين وهم في أغلبيتهم من النِساء، يموتون باكراً، حاملات معهنّ أسرار علمِ الحِراثَة والبَذْر؟ كيف ستتغذّى أفريقيا الآن؟ ماذا عن أزمةِ التعليمِ – السبب الحقيقي لظهورِ الأطفالِ المجندين والمدارس القرآنيةُ، التي تشكل عقبة رئيسية في وجه التحديثِ الإقتصاديِ للقارةِ، عبر رهنه المفهوم الحكم الجيد و القانون بالعالمِ اللاعقلاني؟ كَيفَ نستطيع الوقوف بوجه رفضَ الحداثةِ وعودة الرجعية بالرغم من أنه قد تمّ إدخال وإدماج رموز العولمةِ

بسهولة بيّنة. ما الفرص المتاحة لتَجَذُّر الديمقراطيةِ عندما تكون الضمانات الوحيدةِ للسلطةِ والإستقرارِ هي القوّات المُسَلَّحةُ، وعندما تمعن هذه الأخيرة في سَلْب الناسِ ما لديهم؟ لماذا نشهد في قارة غنية بالقِيَمِ الإنسانيةِ وحس التضامنِ، انعداماً للوعي و الإحساس بالخير العام و المسؤولياتِ المشتركة والثِقة بالمؤسساتِ العامّةِ وأخيراً الشعور بالمواطنية؟ كيف ومتى اختفت مساحات الخيال الجماعية التي ألهمتْ أجيالَ من هؤلاء الذين كافحوا في سبيل العدالةِ والكرامةِ؟ هَلّ بإمكان مغامرة توحيد القارة؟ هَلْ كان لهم يوماً نية في ذلك؟ هَلْ يَجِبُ أَنْ نَضِعَ NEPADعلى غرار مغامرة ال إيمانَنا في التكاملِ الإقليميِ؟ (في الوقت الحاضر، 'التكامل' الوحيد الموجود هو ذلك السائد بين المجموعات المُتَجوِّلةِ والميليشيات المأجورة نِصْفِ المَدرّبة والمسلحة). هل ما زال بامكاننا ان نَحْلمُ بأن التركيبات والهيكليات الإقتصادية، والحركات الشعبية قابلة للتآلف والتناغم ؟ ماذا عن القوى الامبريالية وحضورها الشبيه بفعل مصاصي الدماء من خلال الشركات المتعددة الجنسياتِ؟ ماذا مصير الوحدة الأفريقية و حركة النهضة الأفريقية ؟

في الواقع، إنني لا أنفرد او أتفرد في طرح هذه القضايا. للراغب بالمزيد من المعلومات يمكن مراجعة "شؤونِ أفريقيةِ" التي تنشرها الجمعية الأفريقيةِ الملكيةِ في لندن.)

بالطبع،إن الأخطاء التي ألمّح لها لا تصيب أفريقيا وحدها. بشكل من الأشكال فإن العالم بأكمله في غليان وتأجج. القوى المسيطرة تعيد رسم حدودَ المبادىء الأخلاقيةِ أَو محوها باسم "الأمنَ" و "الإيمان" و" الحضارة"! وإننا جميعاً رازحون تحت وطأة الُعولمة الجشعة و الرغبة القاتلة في السيطرة المغلفة بشتى الذرائعِ البريئةِ، الملتحفة بعباءةِ الدينِ الأرجوانيةِ المهترئة أَو الديمقراطيةِ. لعلّ الديمقراطية تُقْتَلُنا يوماً؛ فنحن نَخْتنقُ بينما هي تحشو حناجِرنا الجاحدةِ. أي أوزّةِ مُلتَهمة سَتُسكتُ في النهاية على القمامةِ المقدمة إليها باسم حقها في السعادة؟ هَلْ في هذا تلاعبِ مبطّنعلى وتر الشراهة؟أم علينا أن نتقبل الفرضية القائلة أن الكوارثِ التي تحدّثُت عنها، مدمجة و ليست سوى قوى عمياءَ مصحوبة

عرضياً بجنرالاتٍ و رؤساء سكارى يتقيؤون شعاراتهم متباهين، على غرار الذبابِ الحائم على الحافلةِ بالغبار الذي تسببوا بتطايره في الصحراءِ العراقيةِ؟

ما هي قِيَم العالمِ؟ في مقابلة حديثة العهد أشار جيمس وولفنسون، الرئيس السابق للبنك الدولي، الى أنّ 900$ بليون مِنْ الإنفاق العالمي السنويِ من قبل حكومات العالمِ يعودُ للدفاع مقابل 300$ بليون بالأحرى لَدْعمُ المزارعين الأغنى في العالمَ بينما يخصص فقط 56$ بليون لمساعدةِ الفقراء. انها مسألة استثمارِ يبدو فيها أن مساعدة الفقراء، بالطبع، لا تدرّ الأرباح كتجارة الأسلحةِ. كذلك نقلت وسائل الاعلام أن "درع " الرئيس بوش الفضائي سَيُكلّفُ 58 بليون دولار تقريباً، في حين أن أهداف الألفية الثالثة المعلن عنهاُ من تخفيض نسبة الفقرليتراجع بشكل ملحوظ بحلول الـ2015، الخ.

باتت لن تتحقق قبل العام 2147. ولا تفهم هذه الماكبرة سوى على ضوء خلفية بَعْض الأرقامِ المقارنةِ: ففي العام 2003 بلغ عدد سكان أفريقيا 704 مليون شخصاً بينما لم يتخطَّ عدد سكان منطقة اليورو307 مليون نسمة؛ متوسط العمر المتوقع في أفريقيا كَان 45,6 سنةً مقابل 78,9 في أوروبا؛ 7,2 % مِنْ الأفريقيين مصابون بداء الإيدز، مقابل 0,3 % لدى الأوروبيين؛ 457 كيلوواطِ مجموع الاستهلاك السنوي للطاقة الكهربائية للشّخص الواحد في أفريقيا، مقابل 5,912 كيلوَواط للمواطن الأوروبي؛ لم يزد الدخل السنوي المتوسط في أفريقيا عن 500$ بينما بلغ في أوروبا 22,810$; 13 % من الطرقِ في أفريقيا كَانتْ سالكة وقابلة للإستعمالأما في أوروبا ف 95 % منها؛ خلال السَنَة المذكورة حلّق ما لا يزيد عن 348,000 رحلةَ طيران فوق أفريقيا، مقابل 3,5 مليون رحلة فوق أوروبا. بين العامين 1981 و 2003 ، ارتفع عددِ الأشخاص في أفريقيا الذين يعيشون يومياً بأقل من دولار واحد مِنْ 40 % إلى 50 %، بينما انخفض هذه النسبة في الصين في نفس الفترة مِنْ 60 % إلى 20 %. وَضعَ ال NEPADوهي الشراكة الإقتصادية الجديدة لتطويرِ أفريقيا، ميزانية تبلغ 64$ بليون سنوياً لتطويرِ البنى التحتية غيرالملائمة في أغلب الأحيان غير أن ما لا يزيد عن واحد بالمائة فقط من المبالغ المرصودة وظّف فعلاً خلال السَنَوات الأربع الماضية في المشاريع المذكورة.

في الحقيقة، إن أفريقيا اليوم أفقر من أي وقت مضى. تزايد الفقر المُدقع أربعة أضعاف خلال العقدين المنصرمين. ُوإن أكثر مِنْ ثُلث سكان القارةَ يتدبّرون أمورهم بأقل مِنْ نِصْفِ دولار يومياً. لقد

دَخلَ مال الى أفريقيا للتطوير أكثر مما ضخّه مشروع مارشالِ للنهوض بأوروبا المدمرة أبان الحرب العالمية الثانية بالرغم من أن معظمِ المالِ 'الأفريقيٍ' يعودِ في النهاية إلى جيوبِ الوكالاتِ المتبرعة. أين صناعاتَنا، جامعاتنا، مؤسساتنا العامّة، مستشفياتنا، طرقنا؟ حروبنا الأهلية كتلك التي استفحلت في بلدين هما من أكثر بلدان القارة كثافة ديمغرافية (السودان والكونغو) إستمرَّت لمدّة طويلة بحيث بدت أمراضاً مزمنة مستديمة ومستعصية. ثم أن نيجيرياً متوسطاً، على الرغم مِنْ الإزدهار النفطي في نيجيريا ، هو اليوم أفقرُ مِما كان عليه في العام 1970 لأن البلادَ المعانية من النزاعاتِ العرقيةِ والدينيةِ هي من أكثر البلدان فساداً ؛ نظامُ العدالةَ يشكو من فشل كليً؛ أمّا الإضطِرَابات المَدَنِية وتهريب رؤوس الأموال فلقد كان من شأنها أن أدت إلى انهيار إحدى أهمّ الجامعاتَ الوطنية التي كانت موضع افتخار واعتزاز.

نعم، أفريقيا جزء من العالمُ لنك موقعها فيه موقع تبعية يفرضها ضعفها وليس موقعالفاعل الفعّال. بالبلية التي تقضّ فيها أساسات الحياة العامة تعود في الأصل إلى اعوجاج العلاقة بين السلطة والظاهرِ: فكلّما ضعف الفكر وخفتت القدرة الحقيقية على التأثير ِ، كلما توهجت المظاهر وازدادت سيطرة. إن الحاجةِ للظهور، وفيها تعبيرأكيد لكنه مموّه لعجز الحقيقيٍ، تترافق و المبالغةً و الاثارة و التلاعب والإجحافِ والفساد والمحاباة. يتنصل رؤساؤنا من الدمّ الذي يصبغ أيديهم و النأي عِنْ صورة أسيادِ الحرب التي طالما لازمتهم لعَيْش المثاليات، كما لو أنَّهم بذلك يسعون إلى إحياء أقنعة الأسلاف.

الأعذار المعلّبة والمتوسلة لتبرير الحالةِ الخطرةِ التي وصلنا اليها لا تخلو من السخرية: التطور التاريخي، الظلم وعدم المساواة في العالمِ عموماً و التمييز العنصري خصوصاً. وإنني في هذا الصدد لا أنفي وجود هذه العواملُ بل أَرْفضُ اعتبارها أمراً واقعاً يستحيل التأثير عليه. وكما نَعْرفُ ونلحظ كُلّ يوم، فإن العناصر الفاسدة في الخارج متحمّسة جداً للإِسْتِمْرار في الإفادة من الوضع السائد. الدول الغنية في العالمِ تَنفقُ 900 بليون دولارَ سنويا على صِناعَة وبيع المعدات الحربية:بذها فإن الكثير مِما يسمّى بالأسلحةِ "الخفيفةِ" سوفَ يصل الى غاباتِ وصحاري أفريقيا الإستوائية و سوف

يُستَعملُ لقتل الجياعِ.على أثر ذلك سوف تجمع الدول الغنية المساهماتَ لإعادة تأهيل الأطفال_ الجنود و إزالة الألغام وتَأمين الأطرافِ الإصطناعيةِ.

في خضمّ هذه الأوضاع الداكنة المتلبدة من عدمِ الأمان العالميِ الذي يلفنا يكمن الفقر المتنامي والجشع اللامتناهي الذي يدعو إلى القلق وأعني به هنا طمعِ المفترسين من منتجي الأسلحةَ والنفطَ والمهربين. في قلبِ البربريةِ الحديثة، وإن كثرت مظاهر العصرنة فيها ، نَجِدُ الأصوليين يُبيدونَ بعضهم بعضاً ومعهم الآلاف من الأبرياءِ يحتسبون بين "الأضرار الجانبية ويختلقون الحجج الإرهابية لخوض حروبِهم بدافع اليأس أَو ما يعتقدونَ أنه قضية دينية وذلك باسم إلههم القاسي والغيور. في وسط ادعاءات البلدانِ التي تزعم أنها متحررة وديمقراطية تسود رغبة في السيطرةِ والربحِ. في عالمنا الغارق في أنوار العقل والفكر ما زِلنا نَجِدُ التمييزِ قائماً في ما يشبه المؤسسة ضدّ النِساءِ. في أدغال الوَحْشيَّةِ , ما زِلنا نَفتقرُ إلى شفقة حقيقية إزاء الأطفالِ.

نعم، إن كان صحيحاً أننا ما زلنا نعيش في تناغم عميق مع التقاليدِ الإنسانيةِ فمن الصحيح أيضاً أ ما من قارة |أخرى يقتل فيها الإنسان بمثل هذه السهولة وبغض النظر عن صغر السنّ. نعم، إن رعباً كثيراً ينسب إلى هؤلاء الزعماءِ الأشبهِ بمصّاصَي الدماء، المفترسين الذين يُجرّون شعوبهم إلى الإفلاسِ والخرابِ والمجاعةِ – عيدي أمين، بوكاسا، موبوتو، اياديما, تشارلز تايلور، أرب موي، روبرت موغابي، دوس سانتوس. . . لكن علينا هنا أَنْ نتَسْاءل، ماذا أورثنا بدورهم أولئك الذين لَمْ تكن لديهم أطماع شخصيةً، " المحترمون المسيحيون" مثل كاوندا ونييري، غير السياساتِ الإقتصاديةِ المجنونةِ والمدمّرةِ؟ قالَ كلود أكي الراحل مرّة: "لا نستغربنّ أن يفشل التطور طالما أنه لم يدرج يوماعلى جدولِ الأعمال بين الأولويات."

نحن لا نَستطيعُ بالتأكيد، قُبُول احتمال أنّ يكون وعينا لذاتنا كقارة جانبياً هامشياً، وأن نغرق في أوحال التخلّفِ و جنونِ الحروبِ وزيادة التسلّحَ كمخرج وحيد للوضع المتردي. استغلال ، إذلال و مزيد من الفقر! ، وبقدر ما يبدو هذا الأمر مؤكداً بقدر ما تبدو لنا طريقنا نحو ملاقاة ذاتنا خارجة عن تَقليد ماديةِ الغربِ!

أُريدُ أن أؤكّد بأنّني لا أَعتبرُ أن الفقر فيَ أفريقيا عائد ببساطة إلى نظام عالمي جائر. إن جزءاً من أسباب تخلفِنا بنيوي دون شك. وكيف يكون غير ذلك في إطار هيكلية رأسمالية عالمية؟ – يبقى أن مواصلة التخبط في فقرنا، والإصرار على البكاء على الذاتَ لكوننا ضحايا التاريخ، فذلك يَعتمدُ كليَّاً علينا. أفريقيا لَيستْ فقيرةَ. وبالرغم من أنَّ أهل الفساد يحركون الأمور مِنْ لندن وباريس وواشنطن، فإن المتواطئين هم في أغلب الأحيان المستفيدون في أفريقيا الذين يغتنون على حساب الفقراء. لا أحد سوى الأفريقيين أنفسهم قادر على إنقاذ أَو إصلاحَ أفريقيا. إن مُسَاعَدَتنا لأنفسنا تبدأ بالتَوَقُّف عن الإختباء وراء أعذارَ "التقليد" و"الثقافةِ", لتَطوير إحساسِ مشترك بالخير العامِ،حتى لا نعيش فقط ونكافح من أجل مجرد البقاء.

قال مارتن لوثر كنج : "إن حياتنا تَبْدأُ بإلانتهاء يوم نسكت عن القضايا المهمة."

نَعْرفُ نزعةِ وميلِ الانسان اللامتناهي إلى شنّ الحروب. في هذا الإتجاه يبدو من المنطقي التحقق خلال العقدين الماضيين من ازدياد عمليات القتل الجَماعيِ وتفاقم نتائجِه وازدياد التراخي في معالجته كما وقَدْ يَكُون من العبث الإصرار على فَهْم حتميةَ هذه "الطريقةِ من الحياة" (هذا إذا سلّمنا أن قتل الجارِ يُمْكِنُ أَنْ يُوْصَفَ بأنه طريقة حياة). مع ذلك، يَجِبُ أَنْ نَستمرَّ بالتجرّؤ على تأييد الحركاتِ الرامية إلى السلامِ والتأكيد على قابليتها للحياة والإستمرار. أمّا التذكير وتذكر واقع انحطاط البيئةِ الدوليةِ، على المستويين الجسدي والأخلاقي، فلا ينفي واجب التذكر والتذكير أن خيطاً لامعاً مِنْ الوعي الإنسانيِ للإذى الناتج عن تسوية الخلافات عبر النزاعات، لطالما كان مرافقاً للسعي إلى السلامِ و لتَخفيف التَوَتّراتِ، والبحث عن الإعتدالِ والحلول بالتراضي للتوفيق بين المصالح المتضاربة بالطرقِ المقبولةِ ولإزالة العبثِ بحياة الناس و الوقف من إراقةِ الدماء. باختصار، لبناء الديمقراطيةِ. حتى وإن صحّ أن " السلام " ما هو إلاّ تعليقَ مؤقتَ للعنفِ فإن ذكرى هذه اللحظاتِ النادرةِ الثمينةِ على طول مسيرتِنا يَجِبُ أَنْتبقى حيّة على الدوام، و تحلّل وتفهم وتنشر.

صحيح اننا في المطلق لا نعرف أكثر مما عرفناه قبلاً وأننا في هذا المضمار لم نحقق تقدّماً. فكُلّ جيليعيش ملء فهمه لذاته بذاته. ونرانا لا نَتعلّمُ مِنْ أخطاءِ الماضي – ربما لأننا نَساوي البقاءً بالتقدّمِ و بالحاجةِ الدائمة للمضي قدماً أو ربما لأننا نتوهّم بأنّنا نَعْملُ على ذلك. هل من المقدّر لنا أن نرتكب الأخطاءَ نفسها؟ علينا بالطبع أن نتجاوز محدوديتنا، و أَنْ نَتعلّقَ بمثالية فكرة ما كحافز للاستمرار في التقدم. لكن عقولَنا ما زالت كما كانت دائماً مُحاطةَ بالظلامِ وما من جديد سوى أنّنا بتنا نعيش في عالمِ أكثرِ خطورة.

كفانا الإحتفال والتغني بالظلام!. إن "الظلام" الذي أُشيرُ إليه يُمْكِنُ أَنْ يعني المقدّر، العالم المَحْجُوب الذي يَغْرِسُ الخوفَ والرهبةَ، لكنه قد يكون أيضاً مصدرَ السحرِ وطرد الأرواحِ. كلنا نَحتفلُ بالحياةِ لكي نهادن الموتَ؛ في العديد مِنْ أجزاءِ عالمِنا المُظلمِ نحتفي بالموتَ لِكي نَجْعلَ نقدر على تحمل الحياة. يَجِبُ أَنْ نُحرّرَ النفوس إذا كنا نُريدُ ابعادها عن اليأس والمصلحة الشخصيّةِ البحتة. للإستمرارية يَجِبُ أَنْ نضطلع بمسؤوليةَ ومهمة تَخَيُّل العالمِ تخيلاً مختلفاً وحلماً جديداً. فأي أفق نقدم اليوم إلى ذلك المراهق الصغير في مونروفيا الذي يظنّ الأن بأن الممرّ الوحيدَ إلى سنِ الرشد يُكمنُ في اقتناء أي كُي –47، و الإدمان على المخدرات , ووضع أحمرِ الشفاه الرخيصِ و إرتِداء الشعر المستعار ولباسِ الزفاف التقليديٍ الحزينِ وبعد ذلك الَخْروجُ للقَتْل؟ ماذا نقدّم للاطفالِ؟ ما الذي يمكن أَنْ يَعِيشوا من أجله؟ ليس كُلّ شخصَ ايكاروس.

نَحتاجُ إلى أن نعيد ابتكار أفريقيا. إن الفكرة وليدة عملية إبداعية للمخيلة. تُنعشُ الذاكرةَ لإعادة احياء الحلول المحلية القديمة لمشاكل السلطة الاعتباطية وتسفيهِ الإجحافِ. والفكرة حركة: كَانتْ أفريقيا دائماً حركةً. فالأقنعة وجدت لكي تُشاهد في حركةِ. سوف تعزز واقع الاختلاف و التعددية – الخاصّ والعمومي – كإطلاق للتسامح والقبول الناشط وبالتالي للنمو. وسَيَكُونُ ذلك مجالا بامتياز لا مكان فيه في لعقدة الضحية والاضطهاد ورمي اللوم على التاريخ، يُروّجُ للحداثةِ أي القِيَمِ والأنظمةِ والهيكليات في مفهومها البديهي العلماني إن شئتم، "الشعبيةَ" المتجذّرةَ في التراث والهوية، المحفّزة والمقدّسة في تطلّعاتِها الصافية. وهو سوف يعترف بإغناءَ التثاقف.

الحركة تَسْبقُ التَفْكير. هذه مقولة من صميم الحكمةِ التيبتيةِ. وهي، كما تفيد خبرتي المحدودةِ ، أولوية طبيعية للتَحَرُك إذا كنت تريد التفكير. يَجِبُ أَنْ نَكُونَ في حركةِ لتشكيل التَفْكير ولَيس العكس. التَفْكير الساكن كالتَخطيط، قبل التَطبيقِ يولّد عادة عمليةِ أخرى تتسم بتدرج النوايا. عندما يَسْبقُ التَفْكير الحركةَ، يكون عادة مصحوبا بالسيطرةِ، بالبحثِ المقصودِ عن الحلولِ المتوفرة مما قد يؤدّي إلى تأسيسِ عقيدةِ وربما إلى التلاعبَ بالهويةِ المحسوسةِ ضمن سياقاتِ أكبرِ لأغراضِ تخدم السياسات السلطوية. من مظاهر هذا الواقع أن تضعنا الحركة المفتتحة للتفكير في حضرة المجهول المحتملَ و في علاقةَ متواضعة و تعلمية ازاء معارف واختبارات الآخرين. نأتي بما لدينا، نَختبرُ، نتواصل و نحدث تغييراً لكننا نتيح لأنفسنا ايضاً أن نصير موضع تغيير.

يولد الإبداع في الفكر على أنه حركة وهو يولد احياناً في حركة الفكر وإدراك فكرة التحرك المادي أو الثقافي أو على الأقل في إمكانية هذا التحرك. الإبداع حركةُ تصوّراتِ، خلق لمجموعاتِ جديدةِ من الماضي والحاضر، إدْراك لمدى امكانية القديم أن يكون جديداً (وأحياناً لإمكانية الجديد أن يكون قديماً وساكناً). وهو تركيز على الأشكالِ المستقبليةِ – وبالتالي مساعدةَ على تَشكيل المستقبلِ. هذا يجري من خلال التفاعل مع التعابيرِ الثقافيةِ والسياسيةِ لدى الآخرين ، ومن خلال التثاقف، و التأثيراتِ المتبادلة، وهو يأتي عن طريقِ مفهوم جديد للمقاربة السياسيةِ. إن مثل هذه الرحلات،المتقدمة حتى نهاية الليلِ، يقوم بها أولئك الذين يخافهم وغالبا ما يكرههم المجتمع ، لأنهم "أسياد النارِ و الخشبِ و الكلماتِ."

بهذا فإنه من الممكن القول أنه لا يزالَ هناك أحلامُ ممكنة لابتكار أفريقيا سوف ترمي الى الكَشْف عن الأسلافَ الجالسين المنتظرين كالذاكرة الحيّة لهذه القارةِ التي وجدت قبل ان يلطخها الغزاة وينهبوها وقبل أن يعزلها الشمالِ مما يعطي دفعاً أكبر لمُوَاصَلَة المعركةِ، مهما كانت التحديات والنتائج. لَرُبَما أصبحتْ انسانيتنا رهينة الحالة الإستعماريةِ. لكن مِنْ ذلك " المنحدر الوعر " (بحسب تعبير ل بهابا في مؤلفه "موقعِْ الثقافةِ") ظَهرَ تساؤل مبهم. لغة الوعي الثوريِ سَتُسجّلُ ملاحظة حول كون "حالة الطوارئ التي نعيشها لَيسَت استثناءاً بل قاعدةَ." (والتر بنيامين) وهي أيضاً، دائماً , حالة ظهورِ. . . لنتابع مَع بهابا: "وجودنا موسوم أصلا بحس البقاءِ على حدود الحاضر". هذا ال`

ما بعد ' ليس أفقاً جديداً، ولا خلفية متروكة في الماضي؛ نَجِدُ أنفسنا في العبورِ حيث يلتقي المكان والزمان لفرز صور مركبة من الإختلافِ والمماثلة، من الحاضر والماضي، من الداخل والخارج، من الاحتواء والإستثناء. لذلك يتولد إحساس بالتضليلِ و بإضطراب في تحديد الوجهة حامل لحركة إستطلاعية قلقة. . .في نقطة ارتكاز إعادة إختراعِنا لأفريقيا، انبعاث الطيرِ المتعدد الألوانِ مِنْ رمادِ الأحلامِ المستهلكةِ و الوعي المتجدد لمَفْهوم الدولية وتعريفها. لكن تفكيراً جديداًِ يحتاجُ لكَسْر قالبِ الإجماعِ، النتن، ذلك الوزن الزائد المسمّى" وحدة " الذي طالما حوى في طياته ضعفِ أفريقيا. إن ديمغرافيا الدولية الجديدة سوف تتناول تاريخَ الهجرةِ في مرحلة ما بعد الإستعمارِ، قصص الشتاتِ الثقافيِ والسياسيِ، نزوح المجتمعات الريفية وجماعات السكان الأصليين، شاعرية المنفى، النثر المتجهم للاجئين السياسيينِ والإقتصاديينِ. عندها فقط تُصبحُ الحدود المكانَ الذي منهتنطلف الحركة التقدمية في تمفصل الآتي المجهول. . . سنسْكنَ حينها فسحة تَظْهر فيها التزامات جديدة؛ يَجِبُ أَنْ نَعُودَ إلى الحاضرِ لوَصْف ثقافتنا المعاصرة وإعادةَ كُتابة تاريخنا الإنسانيللاستشفاف معالم المستقبل. لكي تكون المساحة الفاصلة مساحة تدخّلِ هنا والآن. فحدود العملِ السياسي تتَطْلبُ تجددا في ما هو أبعد من إستمراريةِ القديم والحديثِ. إنه تجدد ينبلج كفعل تمردي لترجمة ثقافية ما. إن ثنائية الماضي–الحاضر الإبداعية لحاجة ضرورية لَيسَ فيها من حنين. فلنقل باختصار أن ما نحتاج أن نحلم به هو تأجيج الإعتقاد بأنِ الأشياءِ يُمْكِنُ أَنْ تتُغيّرَ و بأنّه يُمْكِنُنا تحمل مسؤولية ماضينا ومستقبلنا اليوم في آن و بأن الأمر شأن ثقافي بمفهومه الواسع والعميق فلا نهاب بالتالي التزامنا لتحقيق ما لن يكون سهلاً.

هل أنّ النهضة الافريقية هي الشعلة التي أشرت لها سابقا أو هل ستكون الخشبة التي نغطي بها خجلنا من تخاذلنا المستمر؟

الأسئلة التي حاولت إلقاء الضوء متماوجة الملامح :غير أن توضيحها المحتمل وتمركزها عرضة لتطور الأحداث والأفكار الجديدة– إن أفريقيا في تغير دائم –وأحيانا تطور الأفكار القديمة في ما يشبه في الحالة الأولى حركة الزوبعة اللولبية وفي الثانية مرآة عاكسة. كتب تشيكوف فيما يعرف

بدفاتره أن الأموات يجهلون العيب لكنهم ينتنون.إن البقاء على قيد الحياء يعني الحركة ولو في اطار الشعور بالعيب.

يجب أن نعي وجود مساحات مختلفة في أفريقيا مشجعة على الحركة. في مفهومها المثالي ليست المساحة ملجأ او مقدساً , بل مكانا للتحوّل. ويجب الاعتراف بالحركة المتطورة التي ستتشكل من جراء تطوّر مساحات الابداع مهما كانت دقيقة وتفاعلها مع القيم الوطنية المشتركة. هذا القبول الضروري للتعدّدية ليس مفيداً للتطورفحسب بل هو أيضا ضمانة للهوية مشتركة.

لقد تعمّدت رمي الشباك بعيداً. الترابط واقع وأفريقيا جزء من المعادلة حتى ولو لم تقع على خط النار بين الشرق والغرب.ولطالما ساد الاعتقاد سواء من الخارج أو من الداخل أن أفريقيا هي متنفّس. أنني لَنْ أَقدّم أجوبةِ تتعلق بمميزات العلاقاتِ الثقافيةِ والإقتصاديةِ والسياسيةِ بين الشمالِ والجنوبِ أَو حتى بضرورةُ صياغتها على الاطلاق. في جميع الأحوال، أَعتقدُ أن التقدّم يَكْمنُ في أسلوب طرحنا للأسئلةَ. أمّا الحقيقةُ فتطالعنا في الطريقِ ربما تحت شكل كمين يوحي إلينا بتصور ما لنقطة الوصول. فإذا كان الترحال مولّد للحالة واللحظة فهذا ينطبق أيضاً على رحلة الأفكار التي جلّ ما فيها يقين التوجه صوب وجهة ما.

لكنني بالطبع عند الخروج سَوف أعود وأُميلُ للقَول، أنا الكائن الزائل وغير الإمتثالي، بالقيود والواجبات وسوف أعنى بصياغة حقائقي النظرية الخاصة وأحيكها خرائط سرية أخيطها رقعاً في نسيج اليقين فتضفي من لونها ألواناً على معطفه الداكن الخانق.

في 27 أكتوبر 2005